سجلّ الشعر

« المدار المغلق » ، بقلم جبرا ابراهيم جبرا . المؤسسة الوطنية ، بيروت ، ١٩٦٤
« أحلام الفارس القديم » ، بقلم صلاح عبد الصبور . دار الآداب ، بيروت ، ١٩٦٤
« غرفة بملايين الجدران » ، بقلم محمد الماغوط . مؤسسة النوري ، دمشق ، ١٩٦٤

لم يعرف الشعر متاهة اكبر من متاهته اليوم في العالم العربي . ولم يكن الشعر اكثر ضياعاً ، ولا اكثر خصباً في تيهه، مما هو عليه عندنا في السنوات الاخيرة . فسيناء الشعر العربي الجديد اليوم هي اكبر من متاهات الربع الخالي وربى نجد الشعر القديم بالامس . فصحراء التيه التي عاشها شعرنا عبر تاريخه كله ، كانت تجد امتداداً دائماً لها في كل زمان وفي كل عصر .

واذا كان النقاد يتحدثون دائماً عن «ازمة الشعر العربي » منذ ان بدأ هذا الشعر يتمدد ويثور ويضرب جذوره في ارضنا – وهو اصيل في تراثنا وتاريخنا وادبنا – فانهم كانوا يعالجون ازمة الشعر هذا على صعيد الشكل ، وكان خلافهم خلافاً حول القوافي ، لا حول ما تحمله هذه القوافي . فالخصب ثم الثورة ثم التجديد الذي عرفناه في الشعر العربي في الربع القرن الماضي ، كان امتداداً تاريخياً للضياع واستمراراً لمأساة التيه التي عانى منها طوال وجوده . لذا فمتاهة الشعر ليست بالشيء الجديد في تراثه ، ولا الخصب بالظاهرة الحديثة ، والشعر كان خبز العرب منذ ان وجدوا . غير ان اتساع متاهة اليوم يختلف عن عمق متاهة الامس ، فسيناء الشعر الجديد طريق تبحث لتؤدي الى ارض الميعاد ، بينما كان الربع الخالي وربى نجد وطناً موجوداً حياً للشعر القديم، وان كان غير معروف الحدود ، ولا محدد الابعاد .

ولعل المتاهة الكبرى تبدأ في « المدار المغلق » عند جبرا ابراهيم جبرا ، صاحب «تموز في المدينة» ديوانه الاول ، حيث كان واحداً من قلائل جداً ، اعطوا الخصب الشعري في الوطن العربي قالباً جديداً مرناً ومتحركاً، واغنوه بمضمون حديث، فصارت القصيدة الحديثة قصيدة تحمل موقفاً انسانياً عصرياً ، وتحمل قالباً يتجاوب بمضمونه مع هذا الموقف . ولعل تيه جبرا الشعري قد بدأ منذ ان اضاع تموزه في المدينة . فبدء المتاهة في الديوان الاول ، حيث تموز ، اله الخصب المنقذ ، انسان مصلوب على شرفات المدينة ، معلق بعواميدها ، ملقى في مقاهيها ، وحيث الخطوة الاولى من الضياع . فمن اين يجيبه ، وكيف يبحث عنه ، وليس هناك امامه الا « مدار مغلق » ، يبدأ منه بخطوة واحدة ايضاً مسيرة التيه الطويلة . وشعره هو بوق للنفاق ، ينصاع لكل خديعة !

لعل تيه جبرا يدور في « المدار المغلق » في دوائر الليل حول شفتي حبيبة ، او في هيئيها الكحلاوين ، كالمرأة الغادرة ، يراها ولا تراه ، كما في قصيدة « نرجس والمرايا » ، الى ان يصطدم كأعنف ما يكون الاصطدام بخيبة الامل والمرارة الخانقة ، وهو يسعى في تيهه الى الوصول ، كما في قصيدة « رسالة الى توفيق صايغ » حيث يتخطى كل شيء ، ويحطم كل شيء ، ويخرق كل الاقنعة :

نحن الغرباء الآبدون .
نحن الرافضون المخلفون للطين
سلاحف الطين ، النافذون
مصاريع الامام كالرصاص .
غبار ارجلنا قصائد
ينتحر بها الآخرون .

غير ان جبرا ليس غريباً عن متاهته ، بالرغم من عنفه، بل يكاد يبدو وكأنه سعيد بها ، مكيف نفسه لواقعها ، عارف بما يتوقعه منها. ففي قصيدة «اركضي اركضي يا مهرتي» ، يستسلم للذة الهرب :

اركضي اركضي يا مهرتي ...
من فرح ، لا لشيء ،
من فرح بالمتاهة ، يا مهرتي ،
واصهلي ، وهللي ،
لا لعشق ، لا لشيء .
من فرح بالمتاهة ، يا مهرتي .

ثم يضيع في تعرجات عديدة ، بين القتلى من الرفاق ، من جوع الى سأم ، عاشق الاطلال ، في مواقف لا تعد ولا تحصى ، « ومن يتقن العد في المتاهة » يا ترى ؟

والمتاهة ، متى تبدأ حتى تنتهي ؟ في « يوميات من عام الوباء » صرخة تمزق الانسان العربي الهادر وقته بين السفر الى ارض يحلم بلقائها دائماً ، وبين ارصفة المقاهي مع الوف من المشردين وجيوبه تصفر . فجبرا شاعر قاس لا يرحم ولا يعرف ان يغلف كلماته بنوع من الرقة. وهو شاعر لا ينافق. في قسوته نوع من التحدي، تحدي الانسان المجروح، وعشر سنين من السفر لم تنفع شيئاً. والمدينة نصف على نصف، لا تعرف اذا كانت ميتة ، ام انها تمارس الحياة لان الوباء لم يجتحها بعد ، والنساء تبكي في زواياها ، ويبصق الرجال حقداً على الارصفة ، والتحية يلفظونها كالشتيمة .

والمدينة هذه بؤرة العقم والحياة في شعر جبرا. صلب تموزه فيها ، وسمرت الاكف على النوافذ والابواب ، وانفجرت المنازل ينابيع دم ، وليس هناك من يضرجها بحبه . وهذه القصيدة بالذات دورة كاملة لجبرا داخل مداره المغلق .

وفي شعر جبرا ضجيج ، يشعرك بنوع من التأكل الداخلي، يدفع رغبتك في التحطيم الى اقصى مداها ، من اجل البحث تحت الركام عن هذا الذي اضعته يوماً واردت بناءه ، واذا به بعد ان افقت لم يبق الا الصحو وبقايا من نغم . ويتحول هذا الضجيج الى صراخ يصم اذنيك الى ابعد ما يكون الصمم . وتبدأ المتاهة من جديد :

ما كنت ، لا ما كنت لابغي
فراراً من متاهتي
متاهة اهلي ، رفقتي ، ...
ما كنت ، لا ما كنت لاروي
عن متاهتي
انا الطليق ، طليق
بين جدران ثلاثة
رابعها الدهليز يمتد
امتداد الازل .

اذاً هناك استسلام للمتاهة ، بل اقرار بواقعها، ولماذا الهرب ؟ لا ، هناك ارتطام بحقيقة الجيل الذي خرج منه جبرا ، ليكتب شعراً . وكان ضياعه ، « ضياع جيله الحاقد الباكي » .

وخرج من جيل جبرا ، وهو احد رواده ، الشعر الجديد . وكان هذا الشعر بداية حركة زادت من خصب التيار الادبي كله ، وان زادت من ضياعه واكدت تيهه . وجاء « المدار المغلق » كالتجربة الشعرية الاصح والاسلم لجبرا ، بل الاكثر وضوحاً في محتواها ، بعد « تموز في المدينة » ، ليؤكد ان الشعر الجديد لا يكتفي بالقالب ولا بالشكل كمبرر وحيد لوجوده ، او خروجه عن عمود الشعر العربي . بل ليعطي مضموناً حديثاً ، لعصر الازمنة الحديثة التي يعيشها الانسان العربي في القرن العشرين، عميقاً في جذوره مبتوراً عنها . فكان جبرا ابراهيم جبرا الشاعر الحقيقي ، الذي يعيش كأنسان حديث تجاربه الشعرية ويخرج بالشعر الجديد جديداً في محتواه وشكله وحديثاً بمواقفه وتجاربه . وكان على شفتيه بقية من عسل وبقية من علقم .

وتأتي مع المتاهة الحزن. فقد كان الحزن علامة فارقة من علامات الشعر الجديد ، بل واحدة من

ابرز خصائصه . فكما كان التيه اصيلاً في الشعر العربي في مده الجديد ، كان الحزن اكثر رسوخاً في نفسيته ومضمونه . ولعل الشعر الذي وفد من مصر كجزء من عطاء الثورة الشعرية الخصب، كان اكثر هذا المد حزناً ، واعمقه .

و « احلام الفارس القديم » ديوان صلاح عبد الصبور الثالث ، متاهة اخرى لهذا الفارس القديم مع الحزن . وهو يطرح قضية الحزن في الشعر .

ولماذا نكتب شعراً حزيناً يا ترى؟ ألأن حياتنا مجرد فوضى وهذيان ، نظل نهرب فيها من الظل الى الشمس ، وحلمنا ثوب ارجواني نفرشه فوق جسد امرأة ، ونسير في جنازة ، تابوت الميت فينا اكل السوس خشبه ، ووراءنا قافلة سوداء من اللصوص والقتلة والمجرمين ؟

ففي قصائد « احلام الفارس القديم » يفرد هذا « الشيء الحزين » جناح السأم فوق كل شيء . والحزن والموت والسأم هي من خصائص شعر عبد الصبور. فهو شاعر المدينة الحزينة، وقد نزلها ليجد ان كل خطوة في وسطها مغامرة . وقد يموت قبل ان تلحق رجل رجلاً، يموت ولا يعرفه احد، يموت ولا يبكي احد .

وهو وحده في شعره ، يستسلم لحزنه ، كما يستسلم جبرا لمتاهته . وفي استسلامه نوع من الاعتراف بحقيقته وزمنه ومصيره . فهو من جيل المدينة ، جيل الهزيمة والنكبة، وشعره الحزين لان جيل المدينة هو جيل الانسان الحزين . فالحزن عنده يستقر وينمو ويمد جذوره بعيداً وعميقاً في حياته . ولا يبقى له الا الخيبة . ويتعب قلمه من الصمت ، ويثقلها همس الموت بالالوان ، ويلهث ورقه. ولا يمل من البحث عن طريق للضحكة البريئة او الدمعة البريئة دون حساب الربح او الخسارة .

ولعل « احلام الفارس القديم » اكثر دواوين عبدالصبور نضجاً، وان كان اقل من «اقول لكم»، ديوانه الثاني ، مستوى شعرياً ، لولا قصيدة « مذكرات الملك العجيب بن الخصيب » ، التي هي من اهم قصائده واكثرها عمقاً ومستوى شعرياً ، كما كانت « الظل والصليب » اكثر قصائد ديوانه الثاني اهمية .

غير ان «مذكرات الملك عجيب بن الخصيب» عوضت كثيراً عن نقص الديوان، في كونها القصيدة الاكثر جرأة والاكثر عمقاً والاكثر لعباً بالقوالب الشعرية ، بل الاكثر امتداداً لخصب عبد الصبور الشعري. ولعلها ستبقى احسن قصائده على الاطلاق، هي و « الظل والصليب». لذلك جاءت «مذكرات الصوفي بشر الحافي » على نمطها اقل مستوى واقل شاعرية ، اسلوباً ومضموناً . فقد اراد عبدالصبور ان ينسج على منوال الاولى، ويكرر نفسه، فجاءت مفككة متباعدة، ينقصها الكثير من غنى الاولى. واكد في قصيدة « الملك عجيب » على ملكيته لناصية التعبير الشعري الحديث ، مبتعداً عن الرومانطيقية التي طغت على ديوانيه الاولين ، متخلصاً من اهتمامه بالقافية والبحور المفتعلة ، فاصبح اكثر تحرراً منها ، بل اكثر هدوءاً واطمئناناً الى امكاناته كشاعر حديث . الا ان تجاربه ما زالت في اكثرها مشوهة وناقصة .

ويأتي الجوع ، بعد المتاهة والحزن ، ليكمل حلقة الضياع في الشعر العربي الجديد . ومحمد الماغوط اول جائع حقيقي اصيل في شعرنا :

يا اهلي ... يا شعبي
يا من اطلقتموني كالرصاصة خارج العالم
الجوع ينبض في احشائي كالجنين
اني اقرض جذوري من الداخل ...

ويبدأ «غرفة بملايين الجدران»، ديوان الماغوط الثاني ، في ثقة بديهية بعد ديوانه الاول « حزن في ضوء القمر » ، (١٩٥٩) ، فأطلق اسمه في دنيا الشعر الجديد ، ووطد اقدامه كشاعر يحمل صوتاً يختلف في ادائه ونبراته عن باقي الاصوات. وكانت القصيدة النثرية ، كما احب ان يسميها بعض النقاد، وكان نفس جديد في الشعر الجديد . كان شعراً .

وعـاد صاحب « غرفة بملايين الجدران » ، بعـد غيابه مدة من الزمن ، الى المسرح باصابع سليمة، والحبر ينزف من غرفـه على الجدران والقـاعات ، والقدرة لا تنفعه على سبك الكلمات ، وهو يسمع طقطقة القصائد في جيوبه .

فمحمد الماغوط طاقـة ضخمـة من الموهبـة الشعرية ، فهو امير القصيدة النثرية — اذا استعرنا هذه التسمية وقتياً للتمييز — بلا منازع. فقد فجر مع اولى كتاباتـه الشعرية طاقـة مذهلة من الصور والرموز ، وحول الكلمة العادية المحكية الى شعر.

وهو شاعر الفقـر بقدر مـا هو شاعر التمزق والغربة ، هذه الغربة التي فرضت عليه في وطنـه وفي خارج وطنه، وفرض عليه بحكم قسر الظروف ان يكون كاثوليكياً ضمن جوقة ترتيل بروتستنتية، فلم يوافقـه اللحن ، ولم ينسجم مع الايقـاع ، ولم تعجبه كلمات الترتيلة . فقرأ مزاميره لوحده ، ولم يسمعه احد ، وبقي يرتل .

ولم تعطه الحياة شيئاً من كل مـا تمنى ؛ حتى حاجباه خصمان متقابلان، والجنازات تملأ الشوارع والعمال يتساقطون من الادوار العليـا ، والقبور الصغيرة تتساقط كالندى على قبعات الناس ومعاطفهم. فهو لا يريد اكثر من ان يأكل ويشرب ويموت.

وخلق محمد الماغوط مع شعره، الصورة الشعرية الغريبة غير المألوفة . صوره هي ملكه وحـده ، من صنعه ومن ابتكاره ؛ صور حـادة شرسة مبتورة متداعية ، تقفز قفزاً وتصفعك في وجهك. وهـذه الصورة تزيد في غنى التجربـة الشعرية عنده . فكل تجاربه هي تجارب من دقائق الحيـاة العادية ، من غير اقنعة ومن دون زيف. فهو انسان مطارد وملاحق ، بدوي من غير مضرب، ومشرد من غير رصيف .

واذا تركنا ، لبعض الوقت ، مقاييس النقد التي تفذلك بها كثير من النقاد بالنسبة لشعر الماغوط ، فسنجد ان ديوان « غرفة بملايين الجدران » قد وضع لاول مرة الناقد الصحيح امام تجربـة شعرية فريدة من نوعها ، تحمل امتداداً ونفساً عجيباً . واذا استعرنا من الماغوط تعابيره ، لشعرنا ان تجربته هذه ، تجزبة ملاحقة باستمرار ، كفيمـة اصيبت بالجرب ، او كموجة وحيدة مطـاردة في البحر . ويتأبط الشاعر ثيابه وكتبه ووطنه .

غير ان محمد الماغوط ، بالرغم من القساوة التي يصفعنا بهـا ، شاعر يكاد يقطر رقـة ، بل هوساً رومانطيقياً (بعيداً عن سوء استعمال هذه اللفظة) كما في قصيدة « الرجل المائل » . فتجاربه وصوره لم تعد نيازك سوداء يحرقها في وجهنا ليرعبنا بها . بل هي في كثير من الاحيان مشاعل نور وضاء . ومحمد الماغوط مثال آخر حي للشاعر الذي اعطى مضموناً حديثاً للشعر الجديـد ، فشق فرعاً آخر غير الطريق الذي سلكه شاعر كبير كجبرا . الا انه مثال الشاعر الذي رفع اصبعـه ليوجه اتهاماً غضوباً للبشر ، مستنزلاً لعنته ولعنة جيـل من المشردين الغرباء في ارضهم مثـله ؛ وكان اتهامـه صادقاً وصحيحاً .

رياض نجيب الريس